

الطبيب الصيدلاني الأندلسي

حامد بن سَمْحُون

وريادته في التصنيف الموسوعي في الأدوية المفردة

الأستاذ فاضل السباعي

لعل أطول ترجمة للطبيب الصيدلاني الأندلسي « ابن سمحون » ،
اشتملت عليها كتب الطبقات العربية ، هي تلك التي أوردها ابنُ
أبي أصيبعة ... يقول :

« ابن سمجون [بالجيم المعجمة] . وهو أبو بكر ، حامد بن
سمجون . فاضل في صناعة الطب ، مُتميّز في قُوى الأدوية المفردة وأفعالها ،
مُتقن لما يجب من معرفتها . وكتابه في الأدوية المفردة مشهور بالجودة ، وقد
بالغ فيه وأجهد نفسه في تأليفه ، واستوفى فيه كثيراً من آراء المتقدمين في
الأدوية المفردة .

وقال أبو يحيى اليسع بن عيسى بن حزم بن اليسع في كتاب
(المغرب عن محاسن أهل المغرب) : إن ابن سمجون ألف كتابه هذا في أيام
المنصور الحاجب محمد بن أبي عامر . أقول : وكانت وفاة محمد بن
أبي عامر في سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة .

ولابن سمجون من الكتب : كتاب الأدوية المفردة ، [و] كتاب
الأقرباذين «^(١)» .

(١) ابن أبي أصيبعة : « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » ، ص : ٥٠٠

ثم كان ما ورد عنه ، في بعض المصنّفات القديمة ، لا يعدو ذكراً
لاسمه في جُمَلٍ عارضة .

فمن ابن سمحون (أو سمجون) ؟ وما أعماله ؟

وقبل ذلك : ما العصر الذي أظله من أعصر الحضارة العربيّة
الإسلاميّة ؟

ازدهار الطب النباتي في الأندلس :

بعد عصر الترجمة (القرن الثالث للهجرة / التاسع الميلادي) ،
انطلق الفكر العربي يجوب آفاق « العلم »^(٢) . وكان مما استوعبه الأجداد
وأقبلوا على التصنيف فيه : علم الطبّ والصيدلة ، ولم يكن قد آن للصيدلة
أن تنفصل عن توأمها ، الطب .

وبدا أن الأندلس كانت على موعد مع وصول كتاب ديسقوريدس
(المقالات الخمس) إليها^(٣) ، هديّة من قسطنطين السابع إلى عبد الرحمن
الناصر ، ثم - بعد عامين (٣٤٠هـ / ٩٥١م) - وصل ، قادمًا من
القسطنطينيّة ، الترجمان الطبيب الراهب نقولا ، الذي كان يعرف - عدا
لغته الإغريقيّة - اللغّة الثانية التي يتكلمها كثير من الأندلسيين : اللاتينيّة .

وسرعان ما تألفت في قرطبة ، « لجنة » من علماءها ، من سبعة
أطبّاء^(٤) ، وأخذوا يتداولون مع الترجمان الطبيب نقولا مضمون كتاب

(٢) أعني : العلوم بمفهومها اليوم Les Sciences .

(٣) وهو كتاب ، كما يقول عنه ابن جليجل ، « مصوّر الحشائش بالتصوير الروميّ

العجيب ، وكان مكتوبًا بالإغريقي » .

(٤) أحدهم عبد الرحمن بن الهيثم ، الذي دار عليه بحثنا في المؤتمر السنوي الثالث

عشر لتاريخ العلوم عند العرب (إدلب ، أيار / مايو ١٩٩٠) .

ديسقوريدس ، وهم يهدفون إلى « تفسير » مضمونه ، بمعنى فهمه فهما صحيحا (وليس نقل نصّه الإغريقيّ إلى العربيّة) .

وإذا كان أحدهم - ابن الهيثم - قد شرع في التأليف في هذا الباب الذي تعمّقه ، فأثمر كتابه ذلك الذي كشف فيه عن أخطاء تبينها في كتاب معاصره ابن الجزار القيرواني في الأدوية المفردة المسمّى (الاعتماد) - وقد وصلت توّاً نسخة منه إلى الأندلس - وسماه : (الإيجاز والاقتصاد في خطأ ابن الجزار في الإعتاد) ، فكان بذلك أول من ألف بالطبّ النباتي في الأندلس .

أقول : إذا كان ابن الهيثم قد سجّل لنفسه هنا الخطوة الرائدة ، فإن معاصره ابن جلجل ، الأصغر منه سنّاً^(٥) ، قد عمد إلى « تفسير » أسماء أدوية ديسقوريدس ، بأن جعل - في رسالة له بالغة الأهميّة - اسم كل دواء منها باليونانيّة وإلى جواره ما يُقابله بالعربيّة ، وأحياناً بالبربريّة وبعجميّة الأندلس ، فجاءت رسالته هذه أشبه بمعجم نباتي طبي ، لعله الأول في نوعه بلغتنا العربيّة !

ثم بدا أن ابن سمحون ، معاصر ابن جلجل والذي يُناهزه سنّاً ، قد تجاوز ما حقّقه بلديّاه القرطبيّان ، فصنّف كتابه الحافل : (الأدوية المفردة) !

من ابن سمحون ؟

اسمه - كما ورد عند ابن أبي أصيبعة - « أبو بكر حامد بن

(٥) وُلد ابن جلجل في سنة ٣٣٢ هـ . وأقْدَر أن مولد ابن الهيثم يعود إلى مطالع القرن الرابع الهجري ؛ بحثي : « الطبيب القرطبي ابن جلجل وعصر ازدهار الطب في الأندلس » ، (المؤتمر السنوي الثاني عشر لتاريخ العلوم عند العرب طرطوس ، أيار ١٩٨٩) .

سمحون « (بالجيم المعجمة) ؛ أَلَّف كتابه (الأدوية المفردة) في أيام الحاجب المنصور (حُكْمُهُ من ٣٦٦ - ٣٩٢هـ / ١٠٠٢م) ، وله كتاب آخر بعنوان (الأقرباذين) .

ولم ترد ترجمة لابن سمحون في كتاب معاصره ابن جُلُجُل : (طبقات الأطباء والحكماء)^(٦) ، لعل ذلك لأن طيبينا ، ابن سمحون ، لم يكن قد صعد نجمه في ذلك الوقت ، أو لأسباب أخرى . ولكن ما يُستغرب أن يُغفل الترجمة له القاضي صاعد الطليطلي (المتوفى سنة ٤٦٢هـ) في كتابه الجامع لتراجم العلماء : (طبقات الأمم) .

ثم كان طريفا أن ترجمة ابن سمحون لا تصل إلينا - بعد إغفال قومه له ! - إلا عن طريق المؤرخ الدمشقيّ ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ) ، هذه الترجمة التي استمدّها من كتاب - ضاع فيما يبدو - لمؤرخ أندلسي هو « أبو يحيى ، أليسع بن عيسى بن حزم » (ت ٥٧٥هـ) ، كان قد جاء إلى مصر ، وعاش في كنف السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وألّف له كتابا بعنوان (المُعرب عن محاسن أهل المغرب) .

وفي رسم اسمه : ورد - في نُقول ابن البيطار عنه في كتابه : (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) - بالحاء المهملة : « ابن سمحون » (وهو ما أخذ به) ، مع أن معظم الباحثين تابعوا ابن أبي أصيبعة في رسمه بالجيم ، ومنهم لوسيان لوكليرك (الذي شدّ ما اعتمد في كتابه « تاريخ الطبّ العربي » على مؤرّخنا الدمشقيّ) ، فرسمه Ebn Samadjoun^(٧) ؛ وكذلك المقري في (نفع الطيب) ، ثم الزركلي في (الأعلام) وكتّالة في (معجم

(٦) هذا الذي فرغ من تأليفه في صدر سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م .

(٧) Lucien Leclerc: Histoire de La Médecine Arabe, T. 2: 436.

المؤلفين) ، وآخرهم : محمد العربي الخطابي في (الطبّ والأطباء في الأندلس الإسلامية) .

ومّا يجدر التنبيه إليه أنّ الحميدي (ت ٤٨٨ هـ) أورد في كتابه ما نصّه : « حامد بن سمجون [بالجيم] ، له تصرّف في البلاغة ، وكتاب في البديع ، ذكره أبو عامر بن شهيد وأثنى عليه »^(٨) ؛ ثم بعده الضبي (ت ٥٩٩ هـ) ، الذي أورد في كتابه النصّ ذاته ، ولا اختلاف إلا في إهماله نقطة الجيم^(٩) .

فهل كان صاحبنا ، الطبيب الصيدلانيّ ، متعدّد المواهب ، عالماً بالبلاغة والبديع أيضاً ، فذكره فيهما بعضُ المؤرخين الأندلسيين ، مُغفلين تصرّفه في فنونه الأخرى ؟ يُؤيّد ظننا أنّ مخطوطته التي بين أيدينا فيها استشهاد بالشعر على غير ما يجري عليه الأطباء عادة^(١٠) !

كتابه : الأدوية المفردة :

في تبعية لهذا العالم المغمور ، عرفتُ أنّ قطعةً من كتابه : (الأدوية المفردة) ، أو جزءاً منه ، محفوظٌ في المتحف البريطاني (بالرقم P 11614)

(٨) « جذوة المقتبس » : الترجمة ٣٨٦ ، ص ١٩٧ .

(٩) « بغية الملتبس » : الترجمة ٦٦٨ ، ص ٢٧٢ .

(١٠) ففي مفردة « الحمّاض » - على سبيل المثال ، هذه التي كُتِر فيها القول في كتب المفردات العربيّة - يبدأ ابن سمجون بأن يورد ما قاله ابن السكّيت (ت ببغداد ٢٤٤ هـ) من أنّ الحمّاض : « بُتُّ له ثوارٌ أحمر أشبه بعُرف الديك » ، ثم يستشهد بقول الشاعر :

ماذا يُؤرّقني ، واليوم يُعجبني من صوت ذي رَعَثاتٍ ، ساكن الدار ؟
كأنّ « حُمّاضةً » في رأسه نبّت من آخر الصيف ، قد هَمّتْ بإثمار !
مخطوطة « الأدوية المفردة » : اللوحة ٩٤ / ب . و « رَعَثة » الديك : ما فوق عنقه .

(15705) ؛ وقد حاز المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت صورة عن هذا الجزء ، فزودني - مشكورا - بمصورة عنها على شكل « ميكرو فيلم » .

في الصفحة الأولى من هذه المخطوطة ، التي تتألف من أكثر من مئة ورقة (كل ورقة من صفحتين) ، أنها : « الجزء الثاني من الأدوية المفردة ، تأليف الشيخ الإمام أبي بكر حامد بن سمحون » .

وقد رتب المؤلف « مفردات » كتابه على الأبجدية (لا على الأحرف الهجائية) .

* وبدا أن الجزء الأول ، الغائب ، يحتوي على الأحرف الستة الأولى (أ ، ب ، ج ، د ، هـ ، و) ،

* ويُفترض أن يحتوي ، هذا الجزء الثاني ، على الأحرف الستة الثانية (ز ، ح ، ط ، ي ، ك ، ل) ، أولها « زنجبيل » وآخرها « لزاق الذهب » ،

* « ويتلوه ، في الجزء الثالث ، حرف الميم ، إن شاء الله ، وأوله : مسك » ...

وقد توزعت المفردات ، في الجزء الثاني ، على هذا النحو :

حرف الزاي : ٤١ إحدى وأربعون مفردة (في ٤٧ ورقة مزدوجة الصفحات) ،

حرف الحاء : ٨٥ خمس وثمانون مفردة ، وقد تزيد على ذلك ! (في ٦٧ ورقة مزدوجة الصفحات) ،

أحرف الطاء والياء والكاف : أوراقها مفقودة !

حرف اللام : ليس فيه إلا الورقة الأخيرة ، وهي آخر الجزء ، وفيها ثلاث مفردات .

مفردة « الزنجبيل » :

في المادة الأولى ، من هذا الجزء ، « زنجبيل » ، أحصيتُ فيها ثلاثاً وثلاثين معلومة قدّمها المؤلف عن الزنجبيل ، على ترتيب من النواحي التالية : التعريف بالزنجبيل ، تبيان أصنافه ، مصدره ، ما يُستحسن في صفاته ، قوّته في الحرارة وفي الرطوبة ، منفعته ، أوجه استعماله ، طريقة حفظه ، ما يُستبدل به حين افتقاده .

وهذه المعلومات منسوبة كلّ منها إلى قائله ، من الأطباء والنباتيين والعلماء ، وهم :

من اليونانيين : ديسقوريدس (أربع مرات) ، جالينوس (٣) ،
من المسلمين وسائر العرب : إسحاق بن عمران البغدادي (٤
مرات) ، ابن الجزّار القيرواني (٤) ، ابن ماسة البصري (٣) ، أبو حنيفة
الدينوري (٢) ، دونش بن تميم (٢) ، إسحاق بن سليمان الإسرائيلي (٢) ،
المسيح بن الحكم الدمشقي (٢) ، الرازي (٢) ، ومرة واحدة لكلّ من :
ابن ماسويه ومحمد بن حسن الطبري (!) ولمن أشار إليه بـ « بعض
الأطباء » ، ومرتين لعالم أو اثنين تتعدّر قراءة اسميهما لطمس فيهما !
أسبقيته في هذا التصنيف :

أستطيع القول إنّ ابن سمحون قد سجّل لنفسه أسبقيةً تتجلى في أنه
أول من أقبل - في علمي - على تصنيف كتب المفردات الطبيّة تصنيفاً
موسوعياً في الأندلس ، وأنه كذلك أول من اتّبع في هذا التصنيف طريقة أن
يورد المفردة ثم يُدرج تحتها كلّ ما وصل إلى علمه عنها من معلومات

يتقصّها في كتب الأوائل والمعاصرين ، ناسبا كلّ معلومة إلى صاحبها ، ومضيفا إليها ما استجدّ أو ما صحّ ، عنده ، من آراء فيها ، يُقدّم لها عادة بكلمة « لي »^(١١) !

وذلك كلّ ما أتبعه ، فيما بعد ، ابن البيطار في كتابه الموسوعي « جامع المفردات .. » (القرن السابع للهجرة) ، والذي ظنّ معه الطبيب المستعرب ماكس مايرهوف أنّ ابن البيطار قد أخذ ذلك عن أبي جعفر الغافقي في كتابه في الأدوية المفردة (القرن السادس) ... على حين أنّ ابن سمحون كان السابق إلى ذلك قبل مئتي سنة من الغافقي ، وثلاثمئة من ابن البيطار !

المصادر والمراجع

- ابن سمحون ، أبو بكر حامد (تُوفي بعد سنة ٣٩٢هـ) : مصوِّرة مخطوطة كتابه « الأدوية المفردة » (قطعة منها) ، من محفوظات المتحف البريطاني .
- الحمّيدي ، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الأزدي (ت ٤٨٨هـ) : « جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس » ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٦ .
- الضبي ، أحمد بن يحيى بن عميرة (ت ٥٩٩هـ) : « بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس » ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٦ .
- ابن البيطار ، ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد (ت ٦٤٦هـ) : « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » (أربعة أجزاء في مجلدين) ، طبعة مصوِّرة (عن طبعة بولاق ١٢٩١هـ / ١٨٧٥م) ، دار المدينة (؟) ، د . ت .

(١١) كما أورده ، في مفردة « حَنْدَقُوقِي » ، قوله ، مُصَحِّحا للفاضلين الإغريقيين : « لي : الحندقوقي المصري - الذي يزعم ديسقوريدس وجالينوس أنّ بزره يتخذ منه خبزٌ - وهو النيلوفر عندي ، لأنّ ديسقوريدس سمّاه لوطس المصري ووصفه بصفة النيلوفر ، ولوطس أيضا هو الحندقوقي ، وكلّ واحد بعيد الشبه عن الآخر في صورته وقوته ، وإنما () كان في الاسم فقط » . المخطوطة : ٦٨/ب .

- ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي (ت ٦٦٨ هـ) : « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » ، تحقيق الدكتور نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د . ت .
- المقرئ ، التلمساني ، أحمد بن محمد (ت ١٠٤١ هـ) : « نفتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » (ثمانية مجلدات ، آخرها فهارس) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٨ ، المجلد الأول .
- Histoire de la Médecine Arabe (2 T.) : Lucien LECLERC
 1980 (الرباط) Réédité Rabat (1816-1893) Paris 1876
- الزركلي ، خير الدين (ت ١٩٧٦ م) : « الأعلام » (ثمانية مجلدات) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الخامسة ١٩٨٠ .
- كحالة ، عمر رضا (ت ١٩٨٧ م) : « معجم المؤلفين » (١٥ جزءا ، الأخيران فهارس) طبعة مصورة : دار إحياء التراث العربي ، بيروت د . ت .
- الخطابي ، محمد العربي تأليف وتحقيق : « الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية » (مجلدان) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨٨ .